الفصل الثاني

في سعة عالم الغيب

الوجود أوسع من أن يحاط به

لو قارن الإنسان وجوده بالكون الواسع من حوله... لحقّر نفسه واستصغرها، وربما آيس وقنط. فالإنسان ـ من حيث الحيز و المكان ـ شيء ضئيل جداً في هذا العالم الهائل المترامي الأطراف، حيث الأرض نفسها مجرد ذرة تافهة في بحر عظيم. وهو كذلك ـ من حيث الزمان ـ شيء محدود، فعمر الأرض يمتد إلى مئات الملايين من السنين، بينما يعد عمر الكون بالملايير... فما قيمة بضع عشرات من السنين إلى جوار هذه الدهور الطويلة؟

ولذلك يحيط الغيب بالإنسان من كل ناحية وجانب. فنحن نعيش وسط غابة كثيفة من الغيوب، وكل شيء تمتد إليه أيدينا أو تدركه أبصارنا أو نصل إليه بفكرنا... فيه غيب يقل أو يكثر... ولذا يبدو العقل الإنساني محدوداً جداً أمام غيوب الوجود. وهذا سر القسم القرآني: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۞ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: 38 -39]. فمما قيل في معناه: أي بما تبصرون من الخلق، وما لاتبصرون[1]. ومن هذا الباب أيضاً قوله جل شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: 76]. يعني: آياتهما، إذ أُري السماوات حتى رأى العرش والكرسي، وما في السماوات من العجائب، وما في أسفل

(1) الماوردي. **نكت العيون**، مرجع سابق، 6/ 86.

الأرضين، والشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار. . . . والملكوت هي الملك، زيدت فيها التاء للمبالغة[1].

يقول سيد قطب: «الغيب في هذا الوجود يحيط بالإنسان من كل جانب. . . غيب في الماضي وغيب في الحاضر، وغيب في المستقبل. . . غيب في نفسه وفي كيانه، وغيب في الكون كله من حوله. . . غيب في نشأة هذا الكون وخط سيره، وغيب في طبيعته وحركته. . . غيب في نشأة الحياة وخط سيرها، وغيب في طبيعتها وحركتها. . . غيب فيما يجهله الإنسان، وغيب فيما يعرفه كذلك. ويسبح الإنسان في بحر من المجهول. . . حتى ليجهل اللحظة ما يجري في كيانه هو ذاته فضلاً على ما يجري حوله في كيان الكون كله، وفضلاً عما يجري بعد اللحظة الحاضرة له وللكون كله من حوله، ولكل ذرة، وكل كهرب من ذرة، وكل خلية وكل جزيء من خلية! إنه الغيب. . . إنه المجهول. . . والعقل البشري ـ تلك الذبالة القريبة المدى ـ إنما يسبح في بحر المجهول. فلا يقف إلا على جزر طافية هنا وهنالك يتخذ منها معالم في الخضم. ولولا عون الله له، وتسخير هذا الكون، وتعليمه هو بعض نواميسه، ما استطاع شيئاً. . . ولكنه لايشكر. . .»[2].

إن الإنسان مجرد ذرة صغيرة في هذا الكون العظيم، ولا يجمل به أن ينفي ما يجهله من أسرار الوجود، إذ ـ كما يقول العالم الفرنسي لابلاص ـ نحن لا نعرف جميع العوامل المؤثرة في الطبيعة، ولذلك لا معنى لإنكار مجموعة ظواهر كونية لمجرد أننا غير قادرين على تفسيرها أو فهمها[3].

لكن لِم أنكر بعض الناس الغيب، وما هي منطلقاتهم في ذلك. . . أما كان الأوْلى انكشاف الغيوب للحواس .. حتى يؤمن بها الجميع؟

---

(1) الخازن. **لباب التأويل**، مرجع سابق، 2/ 123.

(2) قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، 3/ 254، الأنعام 60. ونقط الحذف (. . .) في النص هي كذلك في الأصل، ولا تدل على حذف شيء منه، وتلك عادة سيد قطب رحمه الله في التأليف.

(3) ذكره لابلاص في كتابه: **دراسة فلسفية لعلم الاحتمالات**. ونقله أمادو في:
La parapsychologie, p 3.

نماذج معاصرة لإنكار الغيب

لايتفق الذين ينكرون الغيبيات على موقف محدد في الموضوع، فبعضهم ينفي كل شيء لا يقع تحت الحس المباشر، وبعضهم لا يرفض إمكان وجود أشياء غيبية ولكنهم يقولون مع ذلك لا نؤمن بها. وآخرون يقبلون أشياء ـ كبعض ظواهر الباراسيكولوجيا ـ ويرفضون أخرى.

ولا بد من التنبيه على أن المدرسة الوضعية في الأصل، أو بحسب روحها العامة، أو وفق بعض التفسيرات لا تنفي وجود الغيب كما لا تثبته[1]، إنما تعتبر أن على العلم الإنساني إقصاؤه من دائرة بحثه واهتمامه، والاكتفاء بدراسة عالم الأشياء التي هي في متناولنا دراسة تنحو نحو اكتشاف العلاقات الظاهرية بينها، لا حقائقها وأسبابها البعيدة.

ورغم اختلاف الموقف الفكري المنكر لعالم الغيب ـ على الأقل المنكر له جزئياً ـ، وتنوع فروعه، فقد ارتأيت أن أمثل له بالطرف الأقصى، وهو الذي ينكر وجود أي شيء لا يعرفه الحس أو العلم، لنرى الخلفية الحقيقية لهذا الرأي.

من هؤلاء بيندا الذي يدافع عن عقلانية بالغة التطرف ترفض حتى الاعتراف بملكات الخيال والحدس... ونحوها، وهو يعتبر أن العقل شيء ثابت statique، ولذلك فالعلم ينتقل من الثابت إلى الثابت، ولا مجال لإدخال الحركة والتغير في الفكر[2].

ويرفض مارسيل بول[3] كل كلام عن ظاهرة غير طبيعية أو غير عادية – كالتليباثي أو التخاطر عن بعد...ـ، ويتهجم على الغيبيين على اختلاف

---

(1) انظر: **تاريخ الفلسفة الحديثة**، مرجع سابق، ص 320. وذلك من أهم أوجه اختلاف المذهبين الوضعي والمادي.

(2) راجع: La Raison, p 104-105
Julien Benda كاتب فرنسي توفي سنة 1956. ألف في الفلسفة والأدب والسيرة الذاتية.

(3) Marcel Boll كاتب فرنسي ألف في تبسيط العلوم التجريبية، وفي الدعوة إلى نظرة علموية في شؤون الثقافة.

أنواعهم، بدءاً من أصحاب الديانات وانتهاء بالمنجمين والعرّافين وما إليهم. . . لكن لماذا يعتقد الناس في أشكال من الغيبيات لا تحصى؟

الجواب هو أن العقل الإنساني درجات ومراحل، أولها العقل البدائي أو الطفولي، وآخرها العقل العلمي. وكثير من الناس لم يتجاوزوا الطور البدائي في التفكير والذي يغلب عليه الاعتقاد في السحر والتطير، وناس آخرون ظلوا أسرى المعرفة العادية ـ التي نطلق عليها: الحس المشترك ـ[1]، والحال أن المعرفة العلمية تبتعد ـ يوما بعد يوم ـ عن المعرفة العادية[2].

بل إن الاعتقاد في الغيبيات هو أيضاً نوع من التشوه النفسي والخروج عن السوية، ومن علامات اضطراب الشخصية. ولذلك فإن تحليل هذا الاعتقاد هو من مهمات علم النفس المرضي الذي «كشف» عن وجود ظواهر البارانويا والقلق الحاد والحساسية المريضة عند الغيبيين[3].

هذه رؤية جماعة من الوضعيين المغالين، وهؤلاء أبداً لا يمكن أن يؤمنوا بوجود ظواهر ميتافيزيقية أو غير طبيعية، حتى لو حضروا تجربة ما ـ من تجارب الباراسيكولوجيا مثلاً ـ ورأوا شيئاً خارقاً، فهذا لا يعني شيئاً، لأنه بالنسبة لهم يوجد دائماً خطأ ما في التجربة، أو غش ما، أو تفسير طبيعي ما. . . يوجد كل شيء إلا العنصر الغيبي في الموضوع. فهذه عقلية متميزة، ولذلك فإن الوضعية ـ خصوصاً الغالية ـ ليست علماً، ولا منهجاً في العلم، بل هي في الواقع إيديولوجية[4]. وهذه النظرة المادية الضيقة إلى شؤون الوجود هي التي حدت

---

(1) بالفرنسية: Sens commun

(2) Marcel Boll: Quelques sciences captivantes, p 295. l'occultisme devant la science, p 14-15.

(3) Quelques sciences captivantes, p 8, 295-296.
وفي هذا الاتجاه كتب دوفلوري (Maurice de Fleury) رسالتين: العصابيون الكبار. القلقون. كما كتب أيضا: الحمقى، والحمقى البؤساء، والحكمة التي يُعلمونها (صدر عن دار Hachette بباريس، 1928). وألّف لوبا (James. H. Leuba): علم نفس الغيبية الدينية، سنة 1925.

(4) انظر: Quelques sciences captivantes, p: 149 à 150; p 170 note..

ببول مثلاً إلى إنكار أسلوب التنويم المغناطيسي وعلم النفس التحليلي... كل هذا ومثله مجرد كذب وغش عنده[1].

إننا ـ يقول هؤلاء ـ نحتاج إلى العلم فقط، والعلم واحد، إذ لا توجد علوم مختلفة، ولا معارف أخرى خارج إطار العلم. فهو أملنا الوحيد لتحسين أوضاعنا وترك عالم أفضل للأجيال من بعدنا[2].

لكن ماذا عن قضايا الروح والحياة وحقيقتهما وأصلهما... ونحو ذلك من الأسئلة الكبرى؟ يجيب بول: إن هذه المواضيع لا تقع خارج نطاق العلم والبحث التجريبي، إنما وضْع العلم الآن لا يسمح بتقديم إجابات وحلول لها. وما علينا إلا انتظار ما سيسفر عنه التقدم العلمي[3].

أصل إنكار الغيب

وذلك أن لإنكار الإنسان الغيب أسباباً متعددة أهمها:

1. **الجهل**، والمرء عدو ما جهل، ومن ينكر الغيب يستدل بجهله على ذلك، فلأنه لا يعرف عالم الغيب يجحده. قال تعالى ـ في هذا النوع من المنكرين ـ: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: 39].

2. **العادة**، فالإنسان المشرك ـ مثلاً ـ يفضل أن يعبد صنماً من حجر لا يضر ولا ينفع، لكنه يراه ويلمسه... على أن يعبد إلهاً متعالياً لا يراه، ولايشبه شيئاً مما يعرفه في دنياه المحدودة. ولذلك يقول أبو حامد الغزالي: «في طبع الآدمي إنكار كل ما لم يأنس به... فإياك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما في الدنيا، فإنك لو لم

---

(1) Quelques sciences captivantes, p 150-151.

(2) L'occultisme devant la science, p 15-16.
وقد لاحظ أمادو أن دراسات مارسيل بول تتجاهل تماما الباراسيكولوجيا المعاصرة، وتنتقد فقط مراحلها الأولى قبل أن تستوي علما قائما بذاته، كما أن هذه الدراسات مسكونة بهاجس لاديني قوي جدا. انظر: La parapsychologie, p337, note 9

(3) Quelques sciences captivantes, p 221.

تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكاراً لها»[1].

3. **الاعتماد المفرط على الحواس**، إذ من فطرة الإنسان أن يميل إلى الرؤية العيانية خاصة. وقصة موسى عليه السلام ـ حين سأل أن يرى ربه ـ مثال لذلك: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: 143]. وبالطبع فإن موسى لم يشك ولم يرتب، ولكنه أحب ـ بفطرته ـ أن يرى ربه الذي يكلمه، والرؤية أقوى الحواس وأكثرها إشباعاً لفضوله. وكان معنى الجواب الإلهي: «إنك لن تراني الآن، ولا فيما تستقبل من الزمان. ثم استدرك تبارك وتعالى على ذلك بما يدل على تعليل النفي، ويخفف عن موسى شدة وطأة الرد، بإعلامه ما لم يكن يعلم من سنته، وهو أنه لا يقوى شيء في هذا الكون على رؤيته... ولكن انظر إلى الجبل فإنني سأتجلى له، فإن ثبت لدى التجلي وبقي مستقراً في مكانه فسوف تراني، لمشاركتك له في مادة هذا العالم الفاني، وإذا كان الجبل في قوته ورسوخه لا يثبت ولا يستقر لهذا التجلي... فاعلم أنك لن تراني أيضاً... والمعنى: فلما تجلى ربه للجبل أقل التجلي وأدناه انهدَّ وهبط من شدته وعظمته وصار كالأرض المدكوكة.. وسقط موسى على وجهه مغشياً عليه كمن أخذته الصاعقة، والتجلي إنما كان للجبل دونه فكيف لو كان له؟... وأكثر مفسري أهل السنة يجعلون وجه التنزيه والتوبة أنه سأل الرؤية بغير إذن من الله تعالى، ونفي العلم إنما يصح عندهم بمعنى أن ما سأله غير ممكن أو غير واقع في هذه الحياة الدنيا، لا أنه غير ممكن في نفسه وغير واقع ألبتة ولا في الآخرة. ومعنى التوبة الرجوع، والمراد هنا الرجوع عما طَلب إلى الوقوف مع الرب تعالى عند منتهى حدود الأدب»[2].

---

(1) الغزالي. **إحياء علوم الدين**، مرجع سابق، 4/ 546.

(2) مختصراً من **تفسير المنار**، 9/ 123 الى 126.

4. **دعوى الكمال الإنساني**، أي أن الإنسان أحياناً يظن أنه كامل في ذاته مستقل عن غيره، ولا يحتاج لأحد، بعكس الإيمان الديني الذي يرتكز على فكرة محدودية الإنسان وحاجته إلى قوة من خارجه[1].

الحكمة من إخفاء الغيب عن الإنسان

ولعل قائلاً يقول: لِم أخفى الله سبحانه عوالم الغيب عن الإنسان، ألم يكن الأوْلى كشفها له ليؤمن بها؟ والجواب أن عالم الغيب مستور عن البشر، لأن ذلك جزء من طبيعة الابتلاء، فإن الغاية الكبرى من خلق الإنسان حراً مختاراً هي اختباره وامتحانه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: 1 ـ 2] فلو كشف الله لنا عن بعض الغيب ـ بله كله ـ وأبرزه لاضطر الناس أجمعون إلى الإيمان والتصديق، فلم يتميز المحسن منهم والمسيء. وكيف يكون الابتلاء إذا كان الإنسان يبصر الملائكة من فوقه، أو كان يَسْبح في عالم الملكوت[2]. قال الله سبحانه ـ في تعليل تحريم الصيد على الحاج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ﴾ [المائدة: 96]. قال ابن عطية: «الظاهر أن المعنى بالغيب من الناس، أي في الخلوة، فمن خاف الله انتهى عن الصيد من ذات نفسه»[3]. ولذلك مدح الله ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [الأنبياء: 49] أي «يخشون عذابه تعالى وهو غائب عنهم غير مشاهَد لهم. ففيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون بالإنذار ما لم يشاهدوا ما أُنذروه»[4]. ولهذا جاء في الحديث أن كل المخلوقات تسمع أصوات المعذبين في قبورهم،

---

(1) تراجع في هذا الإطار الفلسفة الدينية للألماني فريدريك شلايرماخر (توفي سنة 1834)، والتي بسطها في عدد من كتبه: مقالات في الدين. عرض الإيمان المسيحي. مسارّات ذاتية.

(2) أدرك كانط أنه يستحيل قيام نظام الأخلاق إذا تسنى للإنسان الاطلاع على العالم غير المحسوس، لأنه لا يبقى موضع للإرادة الحرة، حين يتصل الإنسان مباشرة بجلال عالم ما بعد الطبيعة. انظر: Pour connaître la pensée de Kant, p 95

(3) ابن عطية. **المحرر الوجيز**، مرجع سابق، 5/ 189.

(4) أبو السعود. **إرشاد العقل السليم**، 3/ 344، سورة الأنبياء. وانظر: الرازي. **مفاتيح الغيب**، 26/ 48، يس 11.

باستثناء الجن والإنس[1]. وما هذا الاستثناء إلا لأنهما المبتلان من مخلوقات الله تعالى. وهؤلاء المشركون الذين طلبوا من النبي أن يرسل الله تعالى إليهم رسلاً من الملائكة لا من البشر، يجيبهم القرآن الكريم: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: 9 ـ 10] ولذلك لو كان مجتمع الملائكة هو الخاضع لسنة الابتلاء والتكليف، لأرسل الله إليهم ملكا رسولا: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا * قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: 94 ـ 95].

ثم إن كشف الغيب لايفيد الجاحد، متى انفصل عنه. والقرآن يثبت هذه الحقيقة: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: 28 ـ 29]. قال رشيد رضا: «والمعنى: ولو ترى أيها الرسول ـ أو أيها السامع ـ بعينيك هؤلاء الضالين المكذبين، إذ تُقفهم ملائكة العذاب على النار فيقفون عندها مشرفين عليها... فأول شيء يقع حينئذ في قلوبهم هو الندم على ما سلف منهم وتمني الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا»[2]. لكنهم لو رجعوا إلى الدنيا لنسوا وعدهم، ولفعلوا كل ما نهت عنه رسلهم، ولذلك فهم كاذبون في ندمهم، فلا ينفعهم الاطلاع المباشر على الغيبيات، كالمريض الذي يعود إلى ما نهاه عنه طبيبه متى صحَّ وبريء من علّته. وذلك لأنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا لردوا في الظروف نفسها، وضمن الشروط ذاتها، التي عاشوا وفقها في الحياة الدنيا... حتى يتم الابتلاء. ونظام الأسباب الطبيعية ضروري لتحقيق حكمة هذا الابتلاء، لأنه يحجب أفعال الله تعالى، فلا تكون مباشرة جلية يراها الناس من حولهم بكلمة التكوين: كن، فيكون.

إن الانسان ـ حين يصر على الإنكار ـ لا ينتفع بشيء، حتى لو كشف له عن بعض الغيب أو أنزل الله تعالى إليه منه شيئا: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ

(1) رواه البخاري في كتاب الجنائز، من **الجامع الصحيح**.
(2) رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار**، 3/ 56، الإسراء 44.

بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: 7]. قال رشيد رضا: «كأنه يقول: قد علمت أن علة تكذيبهم بالحق إنما هي إعراضهم عن الآيات... لا خفاء الآيات في نفسها... والرؤية واللمس أقوى اليقينيات الحسية وأبعدها عن الخداع، ولا سيما إذا اجتمعا، والثقة باللمس أقوى لأن البصر قد يخدع بالتخييل... ولكن مكابرة الحس بعد اجتماع أقوى إدراكيه ـ وهما الرؤية واللمس ـ وتقوية أحدهما الآخر قلما يقع إلا من جاحد معاند مستكبر...»[1] ومن هذا الباب أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: 14 ـ 15].

وأمر آخر في الحكمة من إخفاء الغيب، هو أن للإنسان مهمة محددة في عمارة الأرض وخلافتها.. ولايحتاج ـ لأجل قيامه بهذه المهمة ـ إلى أن يطلع على الغيوب بتفصيل، بل يكفيه منها ما أخبره به الوحي. يقول سيد قطب في هذا المعنى: «إن هنالك مجالاً للعقل البشري معيناً في ارتياد آفاق المجهول، والإسلام يدفعه إلى هذا دفعاً. ولكن وراء هذا المجال المعين ما لا قدرة لهذا العقل على ارتياده، لأنه لا حاجة به إلى ارتياده. وما لا حاجة له به في خلافة الأرض فلا مجال له إليه، ولا حكمة في إعانته عليه. لأنه ليس من شأنه، ولا داخلاً في حدود اختصاصه. والقدر الضروري له منه ـ ليعلم مركزه في الكون بالقياس إلى ما حوله ومن حوله ـ قد تكفل الله سبحانه ببيانه له، لأنه أكبر من طاقته، وبالقدر الذي يدخل في طاقته. ومنه هذا الغيب الخاص بالملائكة والشياطين والروح والمنشأ والمصير...»[2].

عوالـم الله

إن من أهم مظاهر سعة الغيب... حتى إنه لا يُدرك.. ما خلق الله تعالى من عوالم، نعرف بعضها معرفة ظاهرية، فيما نجهل كل شيء عن أكثرها. ولذلك وصف الباري تعالى نفسه بأنه (رَبَّ الْعَالَمِينَ).

---

(1) المرجع السابق، 7/ 310-311.

(2) قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، 8/ 326، سورة الجن.

بهجة الكون العابد

كل الأشياء من حولنا حيّة، تعرف ربها وتسبحه، في ترانيم دائمة، وبلغات لا نفهمها.. وهذا ما يجعل من الكون كله معبداً هائلاً يُذكر فيه الله سبحانه. إنك حين تستمع إلى خرير المياه وحفيف الأشجار وصفير الرياح وزقزقة العصافير... ربما كنت تستمع إلى لغة في التسبيح لا تفقهها.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: 18] وقال أيضاً: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: 44] وقال عز من قائل عن نبيه داود: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ * وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: 18 ـ 19].

يقول ابن كثير: «ما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله؛ ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، أي: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس، لأنها بخلاف لغتكم. وهذا عام في الحيوان والنبات والجماد، وهذا أشهر القولين..»[1] ولذلك يرى بعض العلماء ـ بناء على عموم النصوص ـ أن كل شيء في الوجود حي، ومنهم محمد عبده الذي قال عنه تلميذه رشيد رضا: «إن الأستاذ الإمام يرى أن في الجماد حياة خاصة به، دون الحياة النباتية... سمعته منه غير مرة»[2].

لكن لا يمكن لنا أن نعرف هذه اللغة التي تسبح بها الأشياء، لصريح قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، إلا استثناء فيكون ذلك كرامة. من ذلك ما حكاه أحد متصوفي مراكش قال: «اعتكفت في رابطة مدة وواصلت أياماً، فخرجت أنظر إلى السماء، فسمعت كل شيء يسبح حتى الحجارة والقرمد والآجر والتبن الذي في الحيطان»[3].

---

(1) تفسيره، 3/ 56، الإسراء 44.

(2) رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار**، مرجع سابق، 2/ 61، البقرة 164.

(3) ابن الزيات. **التشوف إلى رجال التصوف**، ص 324، الرباط: منشورات كلية الآداب، 1984. والحاكي هو أبو الحسن العربي، توفي سنة 612 هـ.

إذن ـ يقول الشيخ الشعراوي ـ: «كل شيء في هذا الكون حي، وكل شيء له حياة تناسب مهمته. فلا الجماد ميّت، ولا النبات ميت، ولا الحيوان. ولكننا لانفهم هذه الحياة»[1].

ولذلك فهذه الجمادات يمكن أن «تعقل» أشياء معينة، كما تشير إليه ظواهر النصوص: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72] ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ﴾ [الحشر: 21] ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: 6].

والمسلم يتعاطف مع الكون من حوله لأنه يشاركه في العبودية لخالق واحد. روى أنس بن مالك قال: خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خيبر أخدمه، فلما قدم راجعا وبدا له "أحد"، قال: هذا جبل يحبنا ونحبه[2].

أكوان أخرى

ومن مظاهر قدرة الله تعالى وسعة ملكوته أنه يخلق خلقاً آخر، ليس بالإنس ولا الجن ولا الملائكة، لا ندري ما هو وما صفته. فمن ذلك ما روي عن النبي ﷺ أن لله أرضاً مسيرة شمسنا هذه أربعين يوماً، وفيها خلق كثير لا يعصون الله، بل لا يعلمون أن الله تعالى يُعصى في الأرض. قالوا: يا رسول الله، من ولد آدم؟ قال: لا يعلمون أن الله خلق آدم. قالوا: يا رسول الله، فأين إبليس منهم؟ قال: لا يعلمون أن الله خلق إبليس، ثم تلا النبي الكريم: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 8][3].

---

(1) الشعراوي، محمد متولي. **الحياة والموت**، ص 44، القاهرة: دار أخبار اليوم، 1992.

(2) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب 71، ومثله في باب 74. ومالك في باب ما جاء في تحريم المدينة من كتاب الجامع في الموطأ. وغيرهما... وعند قدم جبل أحد مقابر الشهداء الصحابة الذين سقطوا أثناء المعركة.

(3) رواه الحافظ العراقي في جزء له عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه، لكنه سكت عنه ولم يذكر شيئا عن درجته. انظر: **المغني عن حمل الأسفار**، 4/ 450. و أورده القرطبي أيضاً =

وأصح من هذا ما رواه أنس عن النبي عليه السلام من أن الجنة لا تزال تتسع حتى يبقى منها فضل، فينشئ الله خلقاً ويسكنهم ذلك الفضل[1]. والله أعلم ما طبيعة هذا الخلق وما شكله.

نظرية العوالم الممكنة

كان هذا الذي سبق عن عوالم أخرى لا نملك أن نطلع على أسرارها أو أن نفهم لغتها، لكنها أكوان موجودة وقائمة.

نعود إلى عالمنا هذا، ترى هل يمكن أن يوجد على حالة أخرى غير حالته الموجودة الآن؟

في العقيدة الإسلامية يجوز أن يخلق الله تعالى عالمنا على شكل مختلف جداً عما عهدناه وألفناه، فلا تكون الأرض كأرضنا، ولا السماء كسمائنا، ولا الشجر والحجر والبشر... كما عندنا أو عهدنا. وأطلق لخيالك العنان، فكل وضع غريب في الوجود هو وضع ممكن وجائز في قدرة الله تعالى.

ويَعرف البحث الفلسفي والمنطقي اليوم نظرية أطلق عليها «العوالم الممكنة»، بحيث كل عالم ممكن هو بمنزلة مجموعة من القضايا تتميز بالاتساق والاستيفاء. وأهم ما تعالجه هذه النظرية: وضع الذوات فيها. فهل الذوات تتغير بتغير العوالم، بحيث الذات «ك» تتحول إلى الذات «ل» بمجرد «انتقالها» من عالم إلى آخر. أم أن الذوات ثابتة حتى حين تكون في عوالم مختلفة. أم أن لكل ذات نظير أو شبيه في كل عالم ممكن، فتكون الذوات متشابهة لا متطابقة ؟[2]

والحقيقة أن عالمنا الحاضر نفسه ينطوي على عوالم متعددة ومتنوعة.

= في **الجامع لأحكام القرآن** 10/ 54 واكتفى بنسبته إلى الماوردي، وهو في تفسيره: **نكت العيون**، 3/ 181، النحل .8. وروى مثله أيضاً أبو الشيخ في العظمة عن أبي هريرة، في باب ما ذكر من كثرة عباد الله، أحاديث 956 إلى 960، ص 324. وهما - عند الحافظ أبي الشيخ - حديثان بإسنادين مختلفين، لكنهما ضعيفين.. وأعرضت عن أخبار أخرى في هذا الباب لضعفها الشديد والذي يقرب من درجة الموضوع.

(1) رواه البخاري في الصحيح، ومسلم في باب محاجة الجنة النار، وأحمد في مسنده.

(2) عن: عبد الرحمن، طه. **في أصول الحوار وتجديد علم الكلام**، ص 143-144، =

وهذا ما لاحظه بعض فلاسفة البراغماتية الذين سجلوا اختلاف عوالمنا التجريبية، بحيث إن عالَم الفيزيائي ـ مثلاً ـ يختلف عن عالم البيولوجي. . . ولا يمكن أن نعتبر أن واحدا فقط من هذه العوالم هو الحقيقي[1].

لماذا لا نرى عالم الغيب؟

ولعل القارئ يتساءل: لِمَ يعجز الانسان عن إبصار بعض هذه العوالم الغيبية، برغم اتصالها بحياتنا واختراقها لوجودنا؟ أي كيف نفسر هذا العجز، فهذا سؤال عن الطريقة التي حجب بها عنا الغيب، وليس عن الحكمة من هذا الحجب.

يمكن أن نجيب عن هذا السؤال بأشكال مختلفة، أقتصر من بينها على فكرة «البعد» الفضائي؛ فهي تُقرب إلى أذهاننا الجواب، حتى لو فرضنا لم تكن هي الجواب الصحيح، أعني بحسب حقيقة الأمر في ذاته.

وقد أشار الغزالي إلى هذه الفكرة، وذلك في معرض حديثه عن القدر الإلهي المهيمن على كل شيء، ونقده لميل الإنسان إلى ملاحظة أفعال البشر أو الحيوان أو الجماد. . . وغفلته عن فعل الله وقدرته وراء ذلك. فالذين يرون ما وراء الظاهر ـ يقول الغزالي ـ «عرفوا أن غلط الضعفاء في ذلك كغلط النملة مثلاً، لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسوِّد الكاغد، ولم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع فضلاً عن صاحب اليد، فغلطت وظنت أن القلم هو المسوِّد للبياض، وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها. فكذلك من لم ينشرح بنور الله تعالى صدرُه للإسلام قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السماوات والأرض ومشاهدة كونه قاهراً وراء الكل، فوقف في الطريق على الكاتب، وهو جهل محض»[2]. إن النملة لا تستطيع أن ترى القلم كله، وبالأحرى لا ترى اليد، ولا الكاتب. . . فكأنها تعيش في فضاء ذي بعدين فقط.

= الدار البيضاء: دار الخطابي، 1987. وتُنظر أعمال:

A. Plantinga, S. Kripke, D. Lewis.

(1) Histoire de la philosophie, 7/162-163.

(2) الغزالي. **إحياء علوم الدين**، مرجع سابق، 4/ 264.

أما الإنسان فقد ظل قرونا طويلة يعتقد أنه يعيش في فضاء له أبعاد ثلاثة، وهو الفضاء الهندسي الأقليدي.. حتى جاءت الفيزياء النسبية لأينشتين، فأثبتت وجود بعد رابع... كما ظهرت هندسات أخرى بأبعاد كثيرة. وقد استفاد الكاتب هنتون من هذا الفتح العلمي الجديد، فطور فكرة البعد الرابع في كتابيه: 1 ـ البعد الرابع، 2 ـ عصر فكري جديد. ثم ألّف رواية تخيل فيها وجود مخلوقات عاقلة شيدت حضارة خاصة بها، ولكنها تعيش في مكان ذي بعدين فقط... فأخذ يصف أحوالها وحياتها ومشاعرها[1].

وتوسع أوسبونسكي في مثال هذا المخلوق الذي لا يعرف الارتفاع، بل فقط الطول والعرض. وبيَّن كيف ينظر مخلوق مسطح كهذا للأشياء ولقوانينها انطلاقاً من انحصار عالمه في بعدين، فهو لا يبصر مخلوقات أخرى تعيش في ثلاثة أبعاد، كالإنسان مثلاً. ولايستطيع تجاوز عقبة ما، إلا بالدوران حولها لا بالقفز عليها. وكذلك لا يفهم معنى العمق[2]. ولست أقصد بإيرادي لهذين المثلين ـ عن الغزالي وهنتون ـ أن الغيب مستورعنا بهذه الطريقة، فنحن خلقنا على وجه لا نستطيع معه إدراك عالم الغيب في حقيقته، ولذا لا نشعر به رغم قربه منا... ولن يتحقق الوعي الكامل بالغيب للإنسان قبل الموت. فهذا البحث الافتراضي يعطينا فكرة عن سبب عجزنا عن رؤية الغيب والمخلوقات الغيبية، إذ يكفي أن تتصور أن بعض الغيب يكون في خمسة أو ستة أبعاد. فهذا معناه أننا لا نعرف حقيقة هذا العالم ـ الذي له أكثر من أربعة أبعاد ـ رغم اختراقه لعالمنا الأقليدي. بل ربما كانت رؤيتنا للأشياء من حولنا كرؤية النملة لرأس القلم، ورؤية مخلوق «فلاتلاند» المسطَّح ـ الذي تخيله هنتون ـ والذي لايرى غير الأشياء المسطحة.. فالله تعالى أعلم بما حوالينا وما فوقنا... وما فينا... وهو القائل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: 31] والقائل تعالى أيضاً: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 8].

---

(1) La vie de l'Espace, p 60-61 -. والكاتب هو Howard Hinton له رواية:
An episode of Flatland.

(2) راجع التفاصيل في: La vie de l'Espace, p 90 et après. والكاتب هو Ouspensky.